**نظرية اِبن خلدون في الشّعر**

**سُوف عبيد**

اِهتمت الدّراسات باِبن خلدون في مجالات التّاريخ والاِجتماع وما شابههما من المواضيع غير أنّ ما قدّمته تضمّ عدّة فصول – وهي الفصول الأخيرة أساسا –قد جعلها اِبن خلدون للأدب عامّة وللشّعر خاصة بالإضافة أنه اِهتمّ بصناعة الوِراقة والخطّ والكتابة في فصول سابقة .

ويرى صاحب المقدّمة في فصل خاص بعلوم اللّسان العربي أنّ أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب .

والجدير بالملاحظة في هذه المسائل أنّ اِبن خلدون قد رأى أن اللغة تتأثر بما جاورها من اللغات الأخرى في قوله (إن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبّر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم) وهذه الملاحظة هي التي جعلته يرى أن عربية قريش ليست هي بذاتها عربية مُضر ويلاحظ كذلك أن لغة (أي لهجة) أهل المشرق تختلف عن لغة أهل المغرب وكذلك لغة أهل المغرب عن أهل الأندلس لأن أولئك خالطهم الفُرس والعجم وهؤلاء خالطهم البربر والإفرنج.

وثمّة فصل آخر على قدر كبير من الأهمية لعل اِبن خلدون جعله تمهيدًا آخر للشّعر ألا وهو فصل في تفسير الذّوق الذي يحصل عند حذق أساليب العرب بالتعلم والممارسة والمدارسة والأعتياد والتكرر بدون النظر إلى أصل المرء كما حصل لدى سيبويه والزمخشري اللذين صارا من أيمة العربية رغم عجمتهما وبذلك يفسّر الإبداع في الأدب لغير الأصل العربي.

ثم يعرف ابن خلدون الشعر في فصلين أولها الذي بعنوان (فصل في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر ) والثاني في فصل (في صناعة الشعر ووجه تعلمه ) ففي الفصل الأول يبين ان لسان العرب ورد على فنين هما الشعر والنثر غير أننا نلاحظ أنه قد قرن الشعر بالنظم قائلا : (الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو (القافية) قم يستعرض ابن خلدون في هذا الفصل الأول أغراض الشعر قائلا : فمنه المدح والهجاء والرثاء ويتعرض كذلك إلى الأسلوب الذي يختص به كل فن في الكلام فيبين أن النسيب مثلا يختص بالشعر وان الحمد والدعاء يختص بالخطب ويلاحظ ابن خلدون في هذا الفصل ولع معاصريه بالسجع في النثر و خاصة أهل المشرق في ذلك إلى حد المبالغة والتكلف.

أما في فصل (صناعة الشعر ووجه تعلمه ) فان ابن خلدون قد قرن الشعر بصناعة الشعر وهو استعمال دأب عليه ابن خلدون في المقدمة مع بقية العلوم والفنون والحرف وغيرها كقوله صناعة الفلاحة وصناعة البناء وصناعة التوليد وصناعة الطب وصناعة البناء ومصطلح صناعة عند ابن خلدون بالنسبة للشعر ليس جديدا فأبو هلال العسكري قد استعمله قبله عند حديثه عن الصناعتين (الشعر والنثر).

وبشرح اِبن خلدون الشعر مبتدئا بماهيته قائلا انه (كلام) ثم يبين أكثر فيقول (مفصلا قطعا قطعا) وهكذا الي يأتي على البيت والوزن وعلى القافية ونلاحظ في هذا التعريف الشكلي بأن البيت يستقل في المعنى عن سابقه ولاحقه غير انه يذكر التمهيد عند الانتقال من معنى إلى معنى قائلا : (ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطئ المقصود الأول معانيه إلى أن يناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه).

فنلاحظ أنّ ابن خلدون قد اِهتم أساسا بالشّعر الحِرَفِي الذي يمتهنه شعراء المدح للتكسب وهو يورد بعد التعريف وذكر البحور وقيمة الشعر عند العرب عدة أمثلة في اِستهلال القصائد سواء في غرض المدح أو الرثاء وهو يؤكد من ناحية أخرى على القالب وعلى المنوال وعلى القواعد التي يتبعها الشاعر قائلا (وهذه الأساليب التي نقررها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب شعر العرب) لكن اِبن خلدون عندما يعرض إلى تعريف الشعر من طرف العروضيين في قولهم ( إنّه الكلام الموزون المقفّى ) لكنّه لا يطمئن إلى هذا التعريف بل يدعو إلى ضرورة النظر في الشعر من جهة البلاغة والوزن والقوالب الخاصة والاستعارة والأوصاف قائلا ( فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصّل بأجزاء متفقة في الوزن والرّوي).

إذن قد عارض اِبن خلدون مقولة ( الموزون المقفى ) في الشعر واِقترح تعريفا أشمل يؤكد فيه الأسلوب والصياغة والمعنى أيضا لذلك نراه يؤكد رأي الكثير من شيوخه في شعر المتنبي والمعرّي باِعتباره نظما .

إن هذا الرأي الصريح في المتنبي والمعري يضيف اِبن خلدون إليه رأيا جريئا أخر يتمثل في قوله ( إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم ) ويضرب على ذلك مثال حسّان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ثمّ يفسر ابن خلدون ذلك بأن هؤلاء قد (سمعوا البشر عن الإتيان بمثلهما ) ويزيد هذا الرأي الجريء صراحة وبيانا فيقول بل لبس (وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ).

يتوضّح لنا حينئذ أن رأي ابن خلدون في الشعر ليس في الأتباع والتقاليد بل إنه نظرة نقدية مخالفة للسائد أحيانا لذلك عمد إلى تحليل وإيراد بعض النماذج الشعبية في عصره من المشرق والمغرب فذكر الشعر الهلاليين ومعاصيرهم وكذلك فصل القول في شعر الموشحات الأندلسية تفصيلا ضمن مقولاته في اللغة التي تعتمد على الحركة والتطور وتلغي الثبات والجمود وهنا تبرز مواقفه النقدية في اللغة والشعر التي تمتاز بكثير من الجرأة على ما ترسخ من النظريات القديمة ولابن خلدون تجربة مع نقد الشعر من خلال مصنفه حول قصيدة البردة بالإضافة إلى القصائد التي قالها في بعض المناسبات وهو يحدثنا في سياق آخر عن معاناته الشعرية ودأبة في الإجادة (نفس الفصل السابق).

فالشّعر لدى اِبن خلدون أحد الجوانب التي تتطلّب الدراسة وليت بعض الهمم تنبري لهذا الأمر بأكثر تفصيل وعمق.